الساقطة

نهى مجدي

obeikan.com

obeikan.com

كالعادة جلس وحيدة، تأمل قسماتي في المرآة، وأُحَدِث نفسي وكأنني شخصٌ آخر غريبٌ عنى، لا يشعر بمعاناتي ولا يُمَزِقُه ألمي، شخصٌ يصفعني كي استيقظ من غفوة إحباطي وسقطات يأسى، وألا أسترسل في مخيلتي الخصبة، التي تتحول إلى أسوأ كوابيسي في نهاية المطاف، نظرت لنفسي تلك المرة وكأنني أراني للوهلة الأولى، وأتحدث لانعكاسي الذي اختلفت ملامحه كليةً منذ آخر مرة، وقفت أمامها متفحصة هيئتي، لقد زحف المشيبُ لرأسي، وتهدلت ثنايا جلدي وضَعُفَ جسدي، وما زلت أتمزق في صمت، حدثت نفسي وكأنني انفصلت عنها بنفس يائسة وقلب يحتضر: " ما ذلك الصخب العابث الذي تحدثه دقات قلبك؟ ألا تتذكرين أنك صرتي أمًا منذ ما يقرب من تسعة أعوام، ومن قبلها أصبحت زوجة منذ أكثر من عشرة أعوام، فلم ذلك الضجيج إذًن؟ ولم تبحثين عما فقدتيه منذ زمن بعيد، وتعلمين جيدًا أنه لن يتجدد مرة أخرى؟! منذ متى وجدتي من يشعر بألمك سوى نفسك، ومنذ متى توقفت عن البكاء ليلًا وعن أن تبللي وسادتك بدموع عينيك المنهمرة كالمطر، منذ متى لمسكِ أحد بحنان أو اهتم لمعاناتك، وأثر الاستماع إليك، تعلمين جيدًا أنه لن يشعر بقلبك سوى نبضات عروقك، التي تزداد دائما لتخبرك أن تهدئي قليلًا؛ حتى لا تقعى صريعة

نوبة قلبية تُسكته للأبد، كم مرة تمنيت حدوث ذلك، كم مرة دعوتي أن يتوقف قلبك؛ ليموت عقلك ولا يفكر في شيء مما يحدث حوله، هل تتذكرين يوم وقفتي على سور شُرفتك؛ وفردتي ذراعيك للهواء؛ لتشعري بلحظات من الحرية، حتى وإن كلفك ذلك السقوط أرضاً تمنيت فقط لو يمنحوك دقائق من السلام النفسي، تمنيت لو احتضنوك وتحملوا أعباءك ولو لليلة واحدة؛ لتشعري بأنكِ ما زلت تستطيعين المتابعة، أتذكرين يوم تيقنت أنه لن يفتقدك أحد، إذا وجدوا البديل لتلبية احتياجاتهم، وقتها صدمتي لأول مرة حتى أعتدتي ذلك، في بداية الأمر يؤلمنا الحدث حتى نعتاد؛ فنفقد الشعور به وبأنفسنا، وأنت أصبحت ذلك الكيان المُحنط، الذى نزعوا منه قلبه وعقله وأحشاءه، وأبدلوها بزهور تبعث روائح جميلة، يستمتع بها الأخرون ولا يشعرون بأن العفن يأكلها منذ زمن بعيد " لا أعلم متى ستتوقف تلك الأفكار عن احتلال عقلي؛ أشعر أنى يومًا سأجن، ذهبت لزوجي الذى طال زواجي به، وبرغم ذلك مازلنا نستشعر غربتنا كلما جلسنا معًا، لا نجد ما نقوله حتى في أكثر أوقاتنا حميمية؛ يغيب الكلام ويحل بدلًا منه فعلًا روتينيًا، يثبت به كلانا للآخر أنه مازال بيننا حياة، وفى داخل كل منا تدور سيناريوهات مختلفة، وينفصل كلانا عن

الواقع، حتى نتم ما بدأناه، وبرغم ندرة حدوثه إلا إنني لا افتقده أبدًا، ولا أظن أن زوجي يفعله إلا حفاظًا لماء الوجه، وثبات لوتيرة تواجده، فهو يعلم جيدًا أنه في غياب دائم عنا، حتى وإن كان حاضرًا معنا فذلك جسديًا فقط، وعقله تدور فيه آلاف القضايا المهمة، التي تحتاج لثغرات محامٍ كفء مثله، لا أعلم لماذا تلك المرة أردت التحدث معه، وكأنني أخيرًا سأُخرج ما في جعبتي بعد صمت سنوات... قل لي يا عزيزي، لماذا تخون المرأة زوجها؟ - لأنها ساقطة قالها دون أن يطرف له جفن وكأنها إجابة بديهية لا تحتاج لتفكير مسبق - هكذا ببساطة، وهل وُلِدَت ساقطة؟

- نعم وكيف عرفت؟

- ماذا بكِ يا سارة، لماذا تلقين تلك الأسئلة اليوم؟ كالعادة لم أستطع التفوه بما في قلبي ولا أعلم هل هو خوف شديد منه أم أنني فقدت كل بصيص ضوء يجعلني اعتقد أنه سيتغير - لأشيء، إنه فقط التأثر، لقد شاهدت اليوم حلقة تلفزيونية تتحدث عن سيدة خانت زوجها مع صديقه المقرب، وعندما سألوها عن السبب قالت " كنت أبحث عن الحب" رفع رأسه عن قراءة سطور قضيته ونظر إلى بأعين يملأها

الضجر- وهل كل من تبحث عن الحب تخون زوجها بتلك السهولة، من الواضح إنها لم تحبه يوماً ولذلك كان الحب مبررًا لتستطيع أن تعطى فعلتها الشنيعة مسحة شرعية تستعطف بها الأخرون حاولت استدراجه للتحدث أكثر ربما يشعر برسالتي من بين سطور قضية تلك السيدة، التي لو عُرِضت عليه لكان اليوم يدافع عنها وهكذا كلٌ منا يدافع عما يناسبه فقط - لقد ظننت أنا الآخر مثلك في البداية، ولكنى صُدِمت عندما عرِفت أنها تزوجته عن حبٍ جم تركت بسببه عائلتها وتزوجته؛ وانجبت منه طفلين، ولكن بعد زواجهما انشغل هو عنها بمادية الحياة وانشغلت هي بالأطفال؛ حتى فقدا نقطه التقائهما فأصبح كلٌ منهما يهيم في عالمه الخاص، حتى حدثت الكارثة وعَرِفَ بخيانتها، نظر إلى بتهكم شديد وسخرية لاذعة تخرج من بين شفتيه - هل تظنين إن بدايات الحب ستستمر بتلك العفوية والانطلاقة لآخر العمر- وهل تظن أنت؟ أغلق أوراق قضيته دون أن يتركها من يده وتحدث كأنما يشرح ملابسات قضية هامة لإحدى طالباته - بالطبع لا، ففي البداية يقتحم عالمنا إحساس الحب العفوي، الذى تظنين أنك لأجله قد تصنعين المعجزات، ثم يأتي بعد ذلك الواقع العملي، الذى يلتهم كل من لا يستطيع مواكبته، فكيف سنستطيع مواكبة

الحياة إذا أصبحنا نهيم فقط بمشاعرنا المتأججة دون النظر لهيمنة المادة، وكيف سيستمر حبنا إذا لم نجد ما نطعم به صغارنا، و نلتمس به المأمن من زخم الحياة، ولكن المرأة تجد نفسها فقط المحقة، فهي المحرومة من تلك المشاعر وهي التي طغى على حياتها ذلك العناء الجاثم فوق صدرها المُسمى بالحياة العملية فيعلو تارة ويهبط أخرى وتجد نفسها في النهاية بين أحضان رجل استطاع أن يزيف لها الحقيقة؛ فسلمته نفسها وهي تردد في داخلها " إنني مظلومة "

ـ وهل تخون المرأة بتلك السهولة برغم أن المُثبت علميًا إن المرأة لا تخون لأجل الجسد، وليس هذا ما تبحث عنه وإن جل ما يأسرها هي تلك الكلمات التي يلقيها الحبيب على مسامعها، فتسر روحها وتشنف أذناها ويرتوى قلبها البور، فهل تَنُدر أيضا تلك الكلمات في صخب الحياة.

- لما أراك تتعاطفين معها، هل حقاً استطاعت أن توهمك كلمتها أنها مجني عليها وإن ما فعلته له مبرر قوى دفعها لذلك. عندما ارتفع صوته انكمشت على نفسي كالقطة، التي تسير في الظلام وتخشى المجهول، كالعادة ينتهي نقاشنا عندما يريد هو ذلك، وأجدني في النهاية

أوافق على آرائه واستكمل نقاشي داخليًا، حتى أشعر بالظفر، حتى وإن كان نجاحًا كاذبًا فما أكثر احتياجنا لنجاح زائف وسط سقطات الحياة.

- عندك حق يا عزيزي فهي الآثمة حقًا.

انزويت في أحد الأركان قليلة الإضاءة، دون أن أصدر أي صوت يجعله يترك أوراقه مرة أخرى ويستكمل توبيخي، وأنا أشاهده يعود لعمله، وهو يمسح على شاربه ويستشعر عبقريته القذة، التي ألجمتني وجعلتني لا أستطيع مجاراته في الحديث، ولا يعلم أني في داخلي استكمل حديثي معه بمليء فمي وعلو صوتي.

- ولِمَ لا؟ لماذا أُجَن عندما أتعاطف مع امرأة تركت زوجها، الذى لا يشبعها حبًا ويتمعن في إهمالها، وتجاهل أنوثتها وانجرفت لآخر ألقى على مسامعها ما أرادات تذوق حلاوة وقعه عليها، كأرض بور وجدت الماء أمامها يشبع عطشها ويجعلها تزدهر، ولكن تلك المياه محرمة عليها، ويجب عليها أن ترتضي عطشها ولا تئن، ولكنى أكون من العقلاء عندما أبرر نفس الفعل للرجل، فهو من له الحق في الزواج بأخرى إذا قصرت معه زوجته، وحتى إذا لم تقصر فله الحرية الكاملة وفى يده

مقاليد الأمور، يتزوج وقتما يشاء ويخون عندما يريد، ويجب علينا أن نعتبرها مجرد نزوة، وألا نعلق له المشانق، وبالطبع يعود سبب ذلك الفعل على كاهل الزوجة المهملة المقصرة، برغم كل تلك السنين التي قضيتها كامرأة متزوجه؛ فلا زلت لا أفهم ذلك الكيان الذى على حق دومًا، وكل ما يفعله يندرج تحت بند "حقوقه"، لم تكن " سارة " الوحيدة الذي يدور داخلها صراع صامت، فهناك من يوهم الآخرين أنه يعمل، ولكنه في الحقيقة يبدى انشغالًا زائفًا يفر من خلاله من صدام المواجهة، ودون أن ينظر إليها، حدثها في قراره نفسه بشيء من الصدق الذي يغلفه دائما الكِبر ورفض الاعتراف بالحقيقة.

- أنا لا أبرر ذلك الفعل الشنيع للرجل أو المرأة، فالزواج هو الرباط المقدس الذي لا يدنسه شيء، ومهما تصدعنا وتمزقنا ففي النهاية لا يُرقع خيباتنا سوانا، وأعلم جيدًا يا سارة أنك تغلفين كلماتك بحكايات الآخرين، ولكنى في النهاية بشر قد أخطئ وأصيب، وقد أكون مقصرًا كثيرًا، وتتحمليني أكثر لكنى لن أتحمل فقدانك يومًا"

. نظرت إليه سارة وكأنها سمعت كلماته لنفسه؛ وسألته بصوت خرج قويًا على غير العادة: هل تبرر للرجل زواجه بأخرى؟

رفع "آدم" عينه عن وريقاته وأجاب بثبات: نعم فهذا حقه.

- ولِمَ لا تملك المرأة ذلك الحق؟

- هل تنتقضين الشريعة؟

- لا، لكنى أتساءل وهذا أبسط حقوقي.

- لأن المرأة خُلِقَت لتكون لرجل واحد فقط، خُلِقَت لتكون زوجة وأم تحتوي صغارها وتنشئهم على الأخلاق والقيم.

- إذن خُلِقَت لتخدم حقوق الجميع وليس لها حق.

- لم أقل هذا، فلها حقها في أن يكفلها زوجها، ويؤمن لها المسكن والملبس والطعام والأمان والنقود وغيرها من الحقوق.

- وماذا عن الحب، أليس من حقها؟

- بالطبع من حقها أن يحبها زوجها ويحسن إليها.

- وإذا لم يفعل؟

- لها الحق في طلب الطلاق إذن.

obeikan.com

- ولِمَ يحق للرجل أن يتزوج بأخرى في وجود زوجته الأولى أما المرأة فلا؟

- أتعتقدين أن الرجل يستطيع أن يحيا، ويتعايش مع زوجته وآخر؟!!

- ولماذا تُجبَر المرأة أن تتعايش في وجود أخرى تقاسمها زوجها؛ فتمتلك نصف قلبه، ونصف عقله ونصف حبه، إذا لم يكن الحب كاملًا، وليس هذا فحسب فهي أيضا قد تجد أخريات يتقاسمن معها هذا الزوج، ومن واجبها أن ترضخ وليس لها حق الاعتراض.

- لا، لها الحق أن ترفض تلك الحياة.

- وماذا بعد؟

- ماذا تقصدين؟

- ماذا بعد أن تُبدى المرأة انزعاجها من ذلك الوضع الآثم، هل سيتراجع؟

- لا، لكنه سيطلقها.

- وهل ترى ذلك عادلًا، يحق للزوج أن يأسر زوجته متى شاء ويطلق سراحها عندما تروق له الفكرة، ويتزوج بأخري بل بأخريات، وليس لها حق الاعتراض، وعندما تعترض ستكون أول المقذوفات خارج الدائرة، وعلى الجانب الأخر ليس لها الحق في أي شيء، فحتى عندما تسأم الحياة لابد أن تخرج منها بإرادته هو، وعندما تضج وتبحث عن الحب في مكان آخر؛ فإننا ننعتها بأقذر الألفاظ، فلا نحن تركناها تذهب ولا نحن أعطيناها ما تريد، إذن متى يكن لها القرار، ومتى تشعر أنها تماثله، وليست ملك يمينه او كعروس (ماريونت) تتشابك خيوطها في يده؛ فتضحك وتبكى وترقص وتموت عندما يحرك أصابعه فقط.

- إذن أنتِ تبررين خيانة المرأة؟!

- بالعكس فالمرأة التي تخون زوجها لا يجب أن تربي أبناء أو تنشئ جيلًا؛ لأنها حتمًا ستنشئه مختلًا، وعلى مر السنوات فأغلب القتلة المتسلسلين، الذين أنجبهم ذلك العالم المقفر لم يكونوا سوى تشوهات زمنية، أنجبتها سيدات ساقطات رأى أبناؤها فعلتها؛ فمقتوا كافة النساء مقتًا؛ دفعهم لقتل من تشابهن مع مسخ أمهم.

- إذن فلماذا تدافعين عن تلك السيدة؟

- قد أكون شعرت يومًا بما تقول.

- ماذا، هل تقولين إني لا أعطيك الحب الكافي، وأنكِ تبحثين عنه في رجل آخر، منذ متى وأنتِ تتحدثين إليَّ هكذا ماذا حل بكِ؟!!

- اطمئن فأنا لن أبحث عنه في أخر، فذلك العمل من شيم ضعافي النفوس، ولكنى لا أستطيع كبح جماح ذلك الشعور بالفقد.

- فقد؟ فقد ماذا يا سارة، صارحني بما يجول بخاطرك، أشعر أنني أتحدث لغيرك، هل أنت سارة زوجتي، التي تزوجتها عن حب أطاح بعقول كل من رآنا، أم تحولت لشيء آخر لا أستطيع تبين ملامحه؟!

- لِمَ يعتقد الناس أن المرأة المتزوجة بمجرد أن تنجب، أن كل مشاعرها القلبية قد تحولت لعاطفة أمومة لا غير، لم يظنون أن المرآة كلما كبرت في العمر فإنها تصبح بلا مشاعر، لم يظنون إنها لا تحتاج لتلك الهمهمات الرومانسية والرسائل الصباحية، التي تضفي عليها بريقها الخاص، وتجعل رونقها لا يزبل، لماذا يعتقد العالم أجمع أنها لا تبكي ليلا، وتتساقط دموعها المخزنة تتلمس وجهها شفقة، وكأنها تحاول تعويض ما فُقِد، هل تعلم لماذا تبكي؟

- لا.

- تبكي لأنها تُطحن كل ليلة بين شقي الرحى، فشق منهم هو القلب والآخر هو العقل، فقلبها يأن وعقلها يثور، قلبها يبحث عن ذلك الهيام وعقلها يُذكرها بأنها زوجة وأم، ويَجلد قلبها بسوط من نار، ومع كل ضربة سوط دموع تتساقط، إلى أن تخور قواها وتذهب في ثبات؛ يجعلها تستيقظ من جديد تؤدى دورها، وتنهى واجباتها وتحقق مطالب الجميع، وهي تستجدى منهم بعض الاهتمام، فلا حق لها ولا واجب لهم.

- أنت مخطئة، فكل منا يترجم أبجديات عشقه بالطريقة التي يراها صحيحة، فأنت تترجمينها بالكلمات الرنانة والمشاعر الدافئة، وأنا أترجمها بالعمل والاجتهاد حتى أستطيع أن أوفر لكم حياة كريمة، والأبناء يترجمونها بإحساس الاحتياج الدائم لك، واحتياجاتنا ما هي إلا ترجمه لانعدام حياتنا دونك.

- وأنا، متى أشعر بأني أنثى تستحق الشعور بالحب والاحتواء، متى ارتمى بين ذراعين ضيقين؛ أشعر بينهما بالبراح الذى يترك العنان للروحي المسجونة بين ضلوعي حتى تلامس الفضاء، هل أنا لا أصلح أن

أكون حبيبة؛ يهرع إليها الرجل حبًا وهيامًا، هل لا أستحق أن يتأملني أحدهم وهو يخبرني كم يحبني ويذوب في تفاصيلي عشقًا، هل نضب الحب منى فلم أعد أصلح سوى لتربية أطفالي والاعتناء بهم، دون الحاجة لمن يتلمس وجهى ويخبرني كم أنى جميلة وأستحق حياة أفضل، أنا لا أطلب المستحيلات ولا اتطلع لها، أنا فقط أريد أن أشعر بالحياة أشعر أن قلبي مازال يتخلله الدفء في أكثر ليالي الصقيع برودة، هل أخبرتك من قبل كم أخشى البقاء وحدى، كم ترتعد مفاصلي ويدق قلبي كلما سمعت نقرة هنا أو هناك، هل تعلم أنني أبكى كلما اشتد المطر، وتساقطت زخاته على نافذتي الزجاجية، وعلت أصوات الرياح وأنت لست بجانبي، هل أخبرتك كم من مرة جفاني النوم وأنا أنتظرك بلهفة العاشق فتقابلني أنت ببرود الجراح.

- وهل أنا سيء لتلك الدرجة؟

- على العكس، أنت رجل صالح وحنون؛ وهذا يجعلني أقف هنا ولا أبرح مكاني، لا أستطيع المواصلة ولا أستطيع الانسحاب، أتمزق داخليًا وأخبركم أن كل شيء على ما يرام، لا أستطيع جرحك ولا أستطيع الكذب أكثر من ذلك، أعلم أنك تطمئن بوجودنا بجوارك، ولكنك لا

تشعر بألمى وحديثي الذي أخفيته عنك طوال تلك السنوات، صدقني يا عزيزي لمجرد تخيلي أن أمكث في تلك الحياة سنوات أخرى ولا أبرح مكاني يجعلني أجن، صدقني لقد أوشك انهياري على الحدوث.

- ولكنك تعلمين جيدًا إنني أحبك، ولكن هناك الكثير مما يدعو للقلق بشأنه، فليست الحياة وردية كما ترينها أنت، ولابد أن تتعمقي أكثر من ذلك، وألا تستمرى في أحلام المراهقات تلك.

- وما هذا الشيء الجلي الذي يمحق شعوري بفقدانك؟

- مثل تلك الحياة التي لا تتوقف ولا تنتظر أحد، ولكنها تواصل التقدم ومن يتمهل يُسحق، هل ستكونين سعيدة وأنتِ من المهددين بالانقراض نظرًا لتردى الأوضاع، أعتقد أنه في ذلك الوقت ستكرهينني أكثر من الآن بكثير، وستتأكدين أن تلك الكلمات الفارغة ليست حقيقية، وإنما منبعثة عن خيال خصب وعقل فارغ.

- كالعادة لن أظفر.

- إنها ليست حرب يا سارة، إنها فقط الحياة، فكلنا ندور في فلك الحياة.

- إذن لا تلومني يومًا إذا انجرفت.

- انجرفتِ لماذا؟

- لتلك الظلمة التي تحاصر الكون، فمدارى ومدارك لن يلتقيا، ولن أستطيع أن أترك مداري، وأبعثر كويكباتي وتطلني اللعنات، لذلك سأختار الفضاء الحر الذي يمثل أخاديد عقلي ومخيلاتي؛ لأهيم فيه بحرية وبلا عتاب.

- ما تلك الطلاسم، لا أفهم؟

- يومًا ما ستفهم.

تركته وذهبت لغرفتي وأنا أغلق بابها، وأندس أسفل غطائي أبكى وأبكى كالطفل التائه من أمه، الذى يشعر أنه محل افتراس من الجميع، ولا يجد حضنًا دافئًا يرتمى بداخله، كالعادة كلما ذهبت لأتحدث معه تخونني كلماتي، وأصمت ولا أجد ما أقوله سوى أنني أعددت العشاء، وأطعمت الأطفال؛ وسأذهب لغرفتي لأتركه يتمعن في عمله أكثر، لا أستطيع مواجهته وبالرغم من ساعاتي، التي أقضيها جالسة أمامه صامتةً لا يشعر بي، تدور داخلي صراعات وحروب وأتخيل نفسى وأنا

أصارحه وأواجهه بما يجول بخاطري وعندما أنتهى من مواجهتي الداخلية الصامتة أنصرف لغرفتي كما حدث الآن، فعندما رأيتني في المرآة وأنا أذبل وأشيخ ذهبت إليه وفى قلبي كلمات تصارع بعضها للخروج، ولكن عندما رأيته يسألني ما بي صمت!! نعم صمّت ولم أنطق وفى النهاية أخبرته إن كل شيء على ما يرام، ولذلك هو لم يعد سؤاله، واكتفى بتلك الإجابة، وهو يشيح بنظره عنى وينغمس في عمله، وعندما جلست أمامه أراقبه في صمت؛ أفرغت جميع كلماتي في داخلي، تصيب قلبي ورئتاي حتى أنهيت خطابي، ولم أعد قادرة على التنفس، وتخنقني عبراتي فانصرفت، هكذا أنا كل ليلة وكل دقيقة وكل لحظة ضعف، أفقد خلالها القدرة على الاستمرار، وأعلم أنى عندما أنتهى من بكائي وعويلي؛ سأغسل وجهى و أضع أحمر شفاهي وأذهب لإعداد القهوة المضبوطة له، وأنا أقبل رأسه وأخبره كم أحبه وإن حقًا كل شيء على ما يرام، وأذهب في ثُبات عميق حتى لحظة انهيار أخرى.

تمت